الإنسان وخصائصه

الإنسان شأنه كبير، وشرفه عظيم، أمره عجيب، ومستواه العقلي والروحي مستوى عالٍ رفيع، واستعداده للمعرفة والكمال استعداد أصيل، وعناية الله تعالى به عناية كبيرة.

أليس هو الذي اختصه الله تعالى بحمل أمانة التكليف، التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبيين أن يحملنها وأشفقن منها..؟ أليس هو الذي جعل الله خليفته في الأرض، ينشر رحمته وينفذ أحكامه وشرائعه..؟ هو الذي اختاره الله سبحانه ليكون عبدًا لحضرته العلوية، وخلقه لمعرفته وعبادته، وجعل الكائنات كلها مسخرة له، ومخلوقة لأجله.

"أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"[1]

قال العارف المرسي رضي الله تعالى عنه: الأكوان عبيد مسخرة وأنت عبد الحضرة، فالسموات وما فيها من الكواكب، والشمس والقمر لأجل الإنسان، والأرض وما عليها من الجبال والأشجار والأنهار، والحيوان لأجل الإنسان، والإنسان هو عبد الحضرة الإلهية خاصة ، ولهذا كانت حياته لا تستقيم، ومزاجه لا يعتدل، وسعادته لا تتحقق إلا بالعلوم النبوية والشرائع السماوية.

وقد هيأ الله تعالى للإنسان السبب الذى يوصل إليه هذه العلوم، حيث وهب له العقل أو الروح أو القلب أو البصيرة الباطنة– سمه ما شئت– وجعله

---

[1] سورة لقمان الآية ٢٠

خزانة علمه ومهب نفحاته، ومحل مكاشفاته، وهو أول رسول بعثه الله تعالى للإنسان وميزه به عن سائر الحيوانات، وهو الوصف القابل للمعرفة المستعد للإيمان وإدراك حقائق الأشياء، واحتمال الأمر والنهي، ثم من الله عليه عز وجل – أي على النوع الإنساني–بالنبوة والوحي بأن أعد طائفة من البشر إعدادًا خاصًا، يمكنهم من مشاهدة الملائكة، وتلقي وحي الله تعالى عن طريقهم وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد جعل من أخلاقهم، وأنوراهم، وسيرهم الحميدة، ومعجزاتهم الخارقة للعادة شواهد على صدقهم، ودلائل على نبؤتهم، ودواعي للثقة بهم، وتصديقهم في أخبارهم.

الإنسان جسم وروح

فالإنسان ليس من قبيل الأرض فقط، ولا من محض التراب والطين، وإنما هو مركب من عالمين، ومكون من عنصرين، عنصر ترابي كثيف وهو الجسم، وعنصر نوراني وهو الروح.

أما الجسم فهو هذا المشاهد المحسوس، وهو مخلوق من طين بحسب أصله، وأول فرد منه وهو سيدنا "آدم" عليه الصلاة والسلام، أبو البشر وأصل النوع الإنساني، ومن ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب بالنسبة لسائر أفراده، وقيل إن الكل مخلوق من الطين وهو التراب والماء معنى أن الله تعالى يحيل أعراض التراب والماء وصفاتهما فتصير نباتًا وحبًا وثمارًا يتغذى منها الإنسان فيستحيل لحمًا وعظمًا وعروقًا وعصبًا وجلدًا وشعرًا و دمًا ولبنًا ومنيا، والمني يصب في الرحم فيمكث مدة نطفة ثم علقة إلى آخر الأطوار المذكورة في قوله تعالى "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"(١) وأما الروح فمع القطع بوجودها ووجود آثارها من الحركة والحس والإدراك فقيل أنه لا يمكن معرفتها لقوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا"(٢) وقيل يمكن معرفتها، وأحسن ما قيل فيها على هذا الرأي أنها جسم نوراني لطيف شفاف مشتبك بالجسم كاشتباك الماء في العود والنار في الفحم، وهذا قول إمام الحرمين.

مقر الروح من البدن

واختلف العلماء في مقر الروح من البدن فمقتضى قول إمام الحرمين المتقدم وهو الصواب أنها سارية في جميع البدن، وقيل إن مقرها البطن، وقيل القلب، وقيل بقرب القلب من البطن، ونسب لجماعة من الصوفية أن محلها الكتف.

مستقر الروح بعد الموت

وأما بعد الموت فقالوا: إن أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الجنة، وأرواح الشهداء في أجواف طيور خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وأرواح غيرهما في البرزخ، والمراد به الحاجز بين الدنيا والآخرة، وله زمان ومكان وحال، فزمانه من حين الموت إلى القيامة، وحاله الأرواح، ومكانه من القبر إلى عليين لأرواح أهل السعادة.. وأما أرواح أهل الشقاوة فهي محبوسة في سجين في الأرض السابعة، وقيل أرواح السعداء في أفنية القبور، وقيل عند آدم عليه الصلاة والسلام في السماء الدنيا لكن لا

---

(١) سورة المؤمنون الآيات: ١٢-١٤

(٢) سورة الإسراء الآية:٨٥

دائماً، فلا ينافي أنها تسرح حيث شاءت– كما قال الإمام مالك ﷺ– وعلى كل حال فلكل روح بجسدها اتصال معنوي، لتنال ما كتب لها من النعيم والعذاب، وورد أن من سلم على قبر شخص كان يعرفه في الدنيا، أنه يرد عليه السلام وهو في قبره ويعرفه. وقد أجمع أهل السنة على أن الأرواح محدثة، خلافاً للزنادقة القائلين بقدمها، ووقع الخلاف في فنائها عند نفخة الصور الأولى وبقائها.. فقال قوم: إنها تفنى ثم تعود كما تعود الأجسام– لظاهر قوله تعالى "كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ"[1] وقوله عزوجل "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ"[2] وقال آخرون ببقائها، وهو المختار.. وأجابوا عن الآيتين.

بأنهما مخصوصتان بغير ما ورد استثناؤه: كالروح، والعرش، والكرسي، والجنة، والنار، واللوح والقلم، وعجب الذنب، وأجسام الشهداء، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبأن معنى فانٍ وهالك أنه قابل لذلك، وكل ممكن قابل للفناء حتى في حال وجوده.

واعلم أن ما يقال عن استحضار الأرواح بالطرق المعروفة الآن كله كذب لا حقيقة له، وإن كنا نعتقد أن الأرواح باقية بعد الموت– وهو المختار عند المحققين من العلماء– وأن لأرواح أهل الصفاء والكمال تصرفاً وجولاناً.

في الملك والملكوت في حياتهم وبعد وفاتهم، وأنها تحضر كثيراً في مجالس العلم والذكر متشكلة بما شاء الله تعالى من الصور، لأنها علوية ملكية لا تحجبها الحواجز، ولا تبعد عليها المسافات..لكن لا بهذه الطرق الشائعة اليوم التي لا يقرها نقل صحيح، ولا عقل سليم، وغاية ما يمكن أن يصدق في هذا الباب أن الشيطانين – وهم القرناء الذين كانوا مقيضين لبني آدم في حال حياتهم– كما

---

[1] سورة الرحمن الآية ٢٦

[2] سورة القصص الآية ٨٨

ورد في الكتاب والسنة– هم الذين يحضرون هذه المجالس الهزلية، ويتحدثون بتلك الأحاديث المفتعلة المفتراة، ويتلاعبون بعقول السذج البسطاء.

متى خلقت الأجسام والأرواح؟

أما الأجسام فأول جسم منها هو جسم سيدنا "آدم" عليه الصلاة والسلام، أبي البشر فقد خلق– كما ورد في السنة الصحيحة– في آخر ساعة من يوم الجمعة بعد ما خلق الله تعالى العرش والماء والسموات والأرض.

وأما باقي الأجسام فكما هو معلوم كل جسم منها خلق في وقته عند تكوينه في بطن أمه.

وأما الأرواح فالذي عليه جمهور العلماء أنها خلقت قبل الأجسام، خلقت كلها دفعة واحدة، ويدل عليه قوله عز وجل "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"[1] إذ من المعلوم أن هذا الخطاب والاستشهاد إنما كان للأرواح لأنها هي المخاطبة المكلفة لأن الأجسام لم تكن حينئذ موجودة.

وقال بعضهم: إنها تحدث مع البدن لقوله تعالى بعد تعدد أطوار البدن: "ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آَخَرَ" بناء على أن المراد من هذا الإنشاء هو خلق الروح وإفاضتها على البدن.

والجمهور يقولون: إن المراد من هذا الإنشاء نفخ الروح في البدن وجعلها متعلقة به، وهذا لا ينافي أنها كانت موجودة قبل ذلك، ثم إن الله تعالى بعد أن يجمع كل روح وجسدها مدة الحياة الدنيا يفرق بينهما الموت، فتبقى الروح حية عالمة مدركة كما كانت قبل حلولها في البدن، ثم ترتبط بالبدن وتعود إليه في القبر

---

[1] سورة الأعراف الآية ١٧٢

على وجه يعلمه الله تعالى، ثم بعد ذلك يجتمعان عند قيام الساعة للبعث والحساب، ثم إلى جنة أو نار.

وإن إلى ربك المنتهى.

ومن هنا يعلم أن الإنسان ذو أطوار ومنازل، وله بداية ونهاية.

أخرج الله تعالى الأب الأول سيدنا "آدم " صلوات الله وسلامه عليه من التراب والطين، وأخرج ذريته من ماء دافق يخرج من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومنها إلى القبر، ومن القبر إلى الحشر والعرض، ومن ذلك إلى النعيم المقيم أو العذاب الأليم فريق فى الجنة وفريق في السعير، كما ورد في الحديث الشريف: "خلقت هؤلاء للجنة ولا أبالي، وبعمل أهل الجنة ما يعملون، وخلقت هؤلاء للنار ولا أبالي وبعمل أهل النار يعملون" فمن كان من أهل الجنة والسعادة في علم الله تعالى وفقه لعمل الجنة وأسباب السعادة والعكس بالعكس.

وليس للإنسان اختيار في هذه الأطوار. فهو يتقلب فيها بمشيئة الله عز وجل وإرادته وحكمته، لا يقدر على بقائه ماء في صلب أبيه، كما لا يقدر أن يبقى جنينًا في بطن أمه، ولا أن يبقى في الدنيا بلا موت، ولا أن يبقى في القبر بلا بعث ولا حساب، فإن الله تعالى مرجعه ومنتهاه شاء أم أبى.

كما أنه لا اختيار له في أصل التكليف بمعنى أنه لم يؤخذ رأيه ولم يستشر في أنه يكلف أم لا، نعم هو مستعد بفطرته، وبما وهب له من القوى والأسباب لهذا التكليف وهو معنى قوله تعالى: "فحملها الإنسان" يعنى أمانة التكليف أي استعد لها وفيه قابلية لحملها وأدائها. فالاختيار الذي أعطاه الله تعالى للإنسان محصور في سلوك أحد طريقي السعادة والشقاء.

ولهذا لم يرتب الله عز وجل الثواب والعقاب إلا على ذلك فقط.

فلا ثواب للإنسان على وجوده في الدنيا، ولا على حلوله في قبره، وإنما ثوابه على الأعمال التي يعملها باختياره في هذه الحياة الدنيا.

قال عليه الصلاة والسلام: "أتاني جبريل فقال: يا مُحَمَّد أحبب ما شئت فأنت مفارقه، وعش ما شئت فأنت ميت، واعمل ما شئت فأنت مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن في قيام الليل، وعزه في استغنائه عن الناس".

رتب الجزاء على العمل لأنه محل القصد والاختيار.

ما يطلق عليه اسم الإنسان.

ويطلق اسم الإنسان في لسان الشرع على الجسم تارة ومنه قوله تعالى: "فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ"(١) فإن المخلوق من الماء الدافق هو الجسم وحده، وعلى النفس أي الروح تارة أخرى ومنه قوله عز وجل: "إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا"(٢) فإن الهلع والجزع من صفات الروح لا من صفات الجسم، كما يطلق عليهما معاً فإنك تقول في الحي هذا إنسان، وهو مشتمل على الجسم والروح ومنه قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا"(٣) والكادح هو الشخص الحي المشتمل على الجسم والروح.

ويرى غير واحد من المحققين أن إطلاق اسم الإنسان على الروح هو الإطلاق الحقيقي، وأن الهيكل المحسوس يسمى إنسانًا على سبيل المجاز، كما

---

(١) سورة الطارق الآيتان ٥ و٦.

(٢) سورة المعارج الآيات ١٩-٢١

(٣) سورة الانشقاق الآية ٦

يسمى ضوء الشمس شمساً مجازاً، فالهيكل المحسوس شبح وظل للإنسان الحقيقي الذي هو الروح المقر بالربوبية المستعد لإدراك الحقائق.

العلاقة بين الجسم والروح

والعلاقة بين الجسم والروح– وإن شئت قلت بين الجسم والقلب، فالقلب والروح هنا شيء واحد– علاقة وثيقة، والرابطة التي بينهما رابطة قوية عجيبة لا نعلم سرها وكيفيتهما، وإنما الذي نعلمه وندركه أن كلاً منهما يتأثر بالآخر، فأفعال الجوارح تصدر عن الخواطر والعلوم والإرادات التي في القلب ولهذا كان في الحقيقة هو المدبر لها، والمسيطر عليها، كما أن أفعال الجوارح تنعكس منها آثار على ما في القلب تزيده قوة وثباتًا، فكأن القلب نهر يفيض على الجوارح، والجوارح جداول نصب في القلب.

ألا ترى أن الإنسان إذا تخيل الشيء الحامض ضرس منه، وإذا تخيل حالة مكروهة وغضب سخن بدنه، فهذه آثار تنزلت من الروح إلى البدن، وإذا واظب الإنسان على عمل من الأعمال وكرره مرات عديدة حصلت ملكة قوية راسخة في جوهر الروح، فهذه آثار صعدت من البدن إلى الروح.

فالعلاقة إذاً بين الروح والجسم، وظاهر الإنسان وباطنه علاقة متينة وإن كان سرها خفياً، حتى جعلت بعض الناس يظن الاتحاد بين عالم الأرواح وعالم الأجسام.

وجعلت البعض الآخر يظن أنه لا شيء وراء هذه الأجسام المحسوسة، فأنكر المعقولات والمعنويات رأساً.

والعاقل الكامل من صدق بالعالمين، وتفطن إلى لطف ما بينهما من العلاقة والارتباط، كما قال الشاعر:

رق الزجـــاج وراقـــت الخمـــر وتشـــابها فتشـــاكل الأمـــر

فكأنمـــا خمـــر ولا قـــدح وكأنمـــا قـــدح ولا خمـــر

غذاء الجسم وغذاء الروح

وإن كان الجسم يتغذى بالطعام والشراب، ويعيش بذلك، فإن الروح غذاؤها العلم والمعرفة وعيشها محبة الله تعالى وطاعته، والتضرع بين يديه. الجسم مخلوق من الطين فهو يميل إلى الشهوة، والروح مخلوقة من النور فهي تميل إلى المعارف والحقائق.. الروح أجنبية عن هذا العالم المحسوس فلا تحتاج إلى شيء منه، لا تحتاج إلى طعام وشراب ولا يلحقها جوع ولا عطش ولا حر ولا برد، ولا تفتقر إلى تعليم بل هي تعرف حقائق الأشياء ما هي عليه، بلا معلم سوى الله تعالى العليم الحكيم، وهي تميز عواقب الأمور تميزاً كاملاً، وكل لذتها وراحتها في مشاهدة جمال الربوبية وكمالها.

وإن كان من مرض قلبه وغلبت عليه الشهوات البهيمية لا يشعر بذلك ولا يحس به، ولا يمكن إقناعه بوجوده لأنه أمر باطني يدرك بالوجدان ولا يقتنص بالأدلة والبراهين: كجوع الجائع وعطش العطشان، ومثل المنكر مثل من استعمل مخدراً في جسمه أفقده الشعور والإحساس ولكن إذا هدأت أحكام البهيمية بحدوث موت اضطراري وهو الموت المعروف أو موت اختياري وهو الرياضات التي يستعملها أهل السلوك أو وقع الإنسان في كرب وشدة أدرك ذلك الميل وشعر به، كمن زال عنه المخدر فعاد إليه إحساسه وشعوره.

الجهاز الروحي أو القوى الإنسانية

أمد الله تعالى الإنسان في ظاهره وباطنه بقوى وآلات يستعين بها على حياته ويتزود بواسطتها لمعاده، ويستعد لتحصيل الكمال علماً وعملاً.

قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره ما حاصله: إن الله تعالى خلع على الإنسان أربع خلع الوجود الذي ميزه به عن سائر المعدومات، والحياة التي ميزه بها عن الجمادات، والقدرة التي مكنه بها من جلب الملائم الموافق، ودفع المنافي الضار، والعقل الذي ميزه به عن سائر الحيوانات وهو الذي شرفه الله تعالى بقوله (في الحديث القدسي): "بك أكرم وبك أهين، وبك أثيب وبك أعاقب" وهو الممنوح للإنسان آخرًا، فلذا كان أفضل الخلع، كما أن سيدنا مُحَمَّداً ﷺ خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو أفضلهم.

وهذا العقل كجفنة مملوءة بالجواهر النفيسة، بل كسماء مملوءة بالكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة فى بدائة العقول وصرائح الأذهان، وكما أن الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدي بها السائرون.. ثم على جميع هذه الجواهر المركوزة في سماء العقل وفي السماء الحقيقة رقم الحدوث ينادي بأن للجميع صانعاً حكيماً..

وقالت الحكماء إن الله تعالى خص الإنسان بقوى ظاهرة تشاهد بالأبصار وهي الأعضاء والجوارح والحواس الخمس: العين– الأذن – الذوق– اللمس– الشم. وقوى باطنة تشاهد بالبصائر وهي ثلاث: القوة العقلية وتسمى القوة الملكية والقوة الناطقة، وشأنها إدراك الحقائق ومعرفة الأمور الغيبية التي لا مجال فيها للحواس الظاهرة، والقوة الشهوانية أو البهيمية ووظيفتها جلب المنافع، وطلب الملاذ من المآكل والمشارب والملابس، والقوة الغضبية أو السبعية، وهي منشأ الإقدام على الأهوال والشوق إلى التسلط والترفع.

والمقصود من هاتين القوتين الأخيرتين حفظ الحياة وبقاء البدن الذي هو مطية الروح ومركبها لتصل بها إلى كمالها اللائق بها وتستعين به على السفر

الذى خلقت لأجله وهو السفر إلى الله تعالى وقطع المنازل إلى لقائه، فلأجله خلقت الأرواح قال تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[1] إذ لو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولما استطاع التغلب على المصاعب ومشاق الحياة، ولا أمكنه القيام بالتكاليف الدينية.

كما أن المقصود من القوة العقلية معرفة حقائق الأمور والتمييز بين المصالح والمفاسد وسياسة الشهوة والغضب على مقتضى الحكمة والشرع.

وعبر العلامة الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة" عن هذه القوى الثلاث بعبارة أخرى لا تختلف في معناها ومقصودها عن عبارة الحكماء حيث قال ما خلاصته إن في الإنسان ثلاث لطائف: العقل الذى يدرك به الإنسان ما لا يدركه بالحواس ومقتضاه البحث عن علل الحوادث ومعرفة الأسباب لكل ما يحدث من نعمة ونقمة، والتصديق بأمور يرد عليها مناسباتها والتفكير في الحيل التي تجلب المنافع وتدفع المضار، والقلب وهو الشيء الذي به يحب الإنسان ويبغض ويخاف ويرجو ويختار ويعزم، والنفس التي من صفاتها أنها تشتهي ما يستلذ من المطاعم والمشارب والمناكح... قال: ثم إن فعل كل واحد من هذه الثلاثة لا يتم إلا بمعونة من الآخرين.. فلولا إدراك ما في الشتم، والكلام الحسن من القبح والحسن وتوهم الضر والنفع ما هاج غضب ولاحب، ولولا متانة القلب لم يصر المتصور مصدقاً به، ولولا معرفة المطاعم ونحوها وتوهم المنافع فيها لم يمل إليها الطبع، ولولا تنفيذ القلب حكمه في أعماق البدن لم يسع الإنسان في تحصيل مستلذاته، ولولا خدمة الحواس للعقل ما أدركنا شيئًا فإن الكسبيات فرع البديهيات، والبديهيات فرع المحسوسات..

---

[1] سورة الذاريات الآية ٥٦

والإنسان هو مجموع ذلك كله، وهو إنسان واحد وجملته مسخر بعضها لبعض، اختصت كل لطيفة من هذه اللطائف بوظيفة ولكنها فطرت على معاونة بعضها لبعض، وكما يصح أن يكون البصر محل الرؤية، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم والفم محل التذوق، والسميع والبصير والشام والذائق إنما هو الجملة التي هي الإنسان، فكذلك الإنسان في لطائف المعنوية.

مراتب الإدراك

واعلم أن الإنسان في نشأته الروحية والعلمية ذو أطوار ومنازل كما هو الحال في نشأته الظاهرة، فكما يكون أولاً نطفة ثم علقة ثم جنيناً ثم طفلاً ثم شاباً ثم شيخاً، كذلك يخلق في أول أمره خالياً من العلم كما قال تعالى: "وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"[1]

ثم يخلق الله تعالى فيه الحواس من السمع والبصر والذوق والشم واللمس فيدرك بها الموجودات الحسية.. يدرك ببصره الألوان والأشكال، وبسمعه الأصوات والنغمات، وبذوقه الطعوم من الحلاوة والمرارة وبشمه الروائح وبلمسه الحرارة والبرودة.

ثم يخلق الله فيه التمييز وهو طور آخر من أطواره المعنوية الروحية فيدرك به أموراً زائدة عن العوالم الحسية ثم يخلق له العقل وهو مبدأ العلوم والمعارف الحقيقية التي يتميز بها الإنسان عن بقية الحيوانات.

والعلوم التي تحصل في العقل تنقسم إلى قسمين:

ضرورية يجد الإنسان نفسه مفطوراً عليها ولا يدري متى حصلت ولا كيف

---

[1] سورة النحل آية ٧٨

حصلت، كالعلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال، وكالعلم بأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وأن الشيء الواحد لا يكون موجوداً ومعدوماً، ولا قديماً ولا حادثاً معاً.

ومكتسبة وهي المستفادة بالتجارب والنظر والاستدلال، وهذه هي غاية درجة الإنسانية في العادة والناس فيها متفاوتون إذ منهم الذكي قوي العقل سريع الفهم كما قال الله تعالى: "يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ"[1] ومنهم الغبي جامد الطبع بطيء الفهم، ووراء ذلك درجات الملهمين من أولياء الله تعالى، وفوقهم درجات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه: النفوس البشرية على ثلاثة أصناف: صنف عاجز بالطبع عن الإدراك الروحاني فينقطع بالحركة إلى الجهة السفلى نحو المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة على قوانين محصورة وترتيب خاص– يعني بهذا الترتيب كتقديم الصغرى على الكبرى في الشكل الأول مثلاً– يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه إذ هو من جهة مبدئة ينتهي إلى الأوليات– العلوم الأولية الضرورية– ولا يتجاوزها وإن فسد فسد ما بعده وهذا في الأغلب نطاق الإدراك البشري الجسماني وإليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدامهم.

وصنف متوجه بتلك الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والإدراك الذي لا يفتقر إلى الآلات البدنية لما جعل فيه من الاستعداد لذلك، فيتسع نطاق إدراكه من الأوليات التي هي نطاق الإدراك الأول البشري، ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها لا نطاق لها من مبدئها ولا من منتهاها،

---

[1] سورة النور آية ٣٥

وهذه مدارك العلماء الأولياء أهل العلوم اللدنية والمعارف الربانية، وهي الحاصلة بعد الموت لأهل السعادة في البرزخ.

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة: جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملكاً بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم وسماع الكلام النفساني- كلام الله سبحانه وتعالى- والخطاب الإلهي في تلك اللمحة، وهؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله تعالى لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة وهي حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم الله عز وجل فيها ونزههم عن موانع البدن وعوائقه ما داموا ملابسين لها بالبشرية الظاهر أن معناه نزههم عن موانع البدن وعوائقه مع كونهم متصفين بالبشرية- فالنبي في اتصاله بالغيب واجتماعه بالملائكة وسماعه الخطاب الإلهي لا يخرج عن بشريته- بما ركب في غرائزهم من القصد والاستقامة، وركز في طباعهم من الرغبة في العبادة بكشف لا باكتساب ولا رياضة.

قلت: وترك ابن خلدون صنفاً رابعاً وهم الذين قصروا نظرهم على المحسوسات وحبسوا أنفسهم في مضيق الماديات لأن هؤلاء في الحقيقة ليسوا من البشر ولا من النوع الإنساني بل من الحيوانات لأن ميزة الإنسان التي اختص بها هي العقل والتفكير بواسطته والتصديق بما وراء المادة والحس.

معدن الحكمة والعلم.

فانظر كيف كرم الله تعالى الآدمي، كما قال عزوجل: "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ"[1] وكيف سوى نفسه كما قال: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا"[2] حيث أعطاه القوى

---

[1] سورة الإسراء الآية: ٧٠

[2] سورة الشمس الآية: ٧

الظاهرة والباطنة وحدد لكل قوة وظيفتها وهيأ له العقل الذي يدرك به حقائق الأشياء ويقدر به على اكتساب العلوم النظرية، وبهذا صار الإنسان معدن الحكمة والعلم، حتى قال الحكماء :"إن التعليم لا يجلب للإنسان شيئاً من الخارج وإنما يكشف عن الموجود".. ومعناه أن العلوم كلها مركوزة في فطرته مضمنة في عقله: الضروري منها حاصل له فعلاً بتعليم الله تعالى وإلهامه من غير كسب ولا طلب، والنظري موجود بالقوة كالنار في الزناد، والماء في الأرض، والنخل في النوى، وإنما يصير حاصلاً بالفعل ويظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجه إلى الوجود وهو التأمل والتفكر الذي هو الخصوصية التي امتاز بها الإنسان ولا يستطيع الصبر عنها بحال.

قال ابن خلدون: "إن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن – المسكن – وغير ذلك وإنما تميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بأبناء جنسه والاجتماع المهيئ لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الأنبياء عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه، فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر. وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع، ثم لأجل هذا الفكر وما جبل عليه الإنسان بل الحيوان من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من الإدراكات فيرجع إلى من سبقه بعلم، أو زاد عليه بمعرفة أو إدراك أو أخذه ممن تقدمه من الأنبياء الذين يبلغونه لمن تلقاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم إن فكره ونظره يتوجه إلى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحداً بعد آخر، ويتمرن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً وتتشوق

نفوس أهل الجيل الناشئ، إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل معرفته ويجئ التعليم من هذا"

واعلم أن كل آدمي فهو صالح بفطرته وأصل جبلته للإدراك ومعرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه وإنما يعوقه أسباب طارئة.

قال العارف البنا في منظومته المسماة "بالمباحث الأصلية" في التصوف:

وهـــذه الحقيقـــة النفســـية موصـــولة بالحضـــرة القدســـية

وإنمـــا يعوقهـــا الموضـــوع ومـــن هنـــا يبتـــدأ الطلـــوع

فلـم تـزل كـل النفـوس الأحيـا علامـــة دراكـــة للأشـــيا

وإنمـــا تعوقهـــا الأبـــدان والأنفـــس النـــزع والشـــيطان

فكـــل مـــن أذاقهـــم جهـــاده أظهـــر للقاعـــد خـــرق العـــادة

ومثل الإمام الغزالي في "الإحياء" قلب الإنسان بالمرآة قال: وكما أن المرآه لا تنكشف فيها الصور لخمسة أمور أحدها نقصان صورتها كجوهر الحديد قبل أن يدور وبشكل ويصقل، والثاني لخبثه وصدئه وكدورته وإن كان تام الشكل، والثالث لكونه معدولاً به عن جهة الصورة إلى غيرها كما إذا كانت الصورة وراء المرآة، والرابع لحجاب مرسل بين المرآه والصورة، والخامس للجهل بالجهة التي فيها الصورة المطلوبة حتى يتعذر بسببه أن يحاذي بها شطر الصورة وجهتها. وكذلك القلب مرآة مستعدة لأن ينجلي فيها حقيقة الحق في الأمور كلها وإنما خلت القلوب عن العلوم التي خلت عنها لهذه الأسباب الخمسة :نقصان في ذاته كقلب الصبى فإنه لا ينجلي له المعلومات لنقصانه، والثاني لكدورة المعاصي والخبث الذى يتراكم على وجه القلب من كثرة الشهوات فإن ذلك يمنع صفاء القلب وجلاءه، فيمتنع ظهور الحق فيه لظلمته وإليه الإشارة بقوله

ﷺ: "من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً"، الثالث أن يكون معدولاً به عن جهة الحقيقة المطلوبة فإن قلب المطيع الصالح وإن كان صافياً فإنه ليس يتضح فيه جلية الحق لأنه ليس يطلب الحق- يعنى المعرفة الخاصة عند الصوفية- وليس محاذياً بمرآته شطر المطلوب بل ربما يكون مستوعب الهم بتفصيل الطاعات البدنية، أو بتهيئة أسباب المعيشة، ولا يصرف فكره إلى التأمل في حضرة الربوبية، والحقائق الخفية الإلهية، فلا ينكشف له إلا ما هو متفكر فيه من دقائق آفات الأعمال وخفايا عيوب النفس إن كان متفكرًا فيها أو مصالح المعيشة إن كان متفكراً فيها. وإذا كان تقييد الهم بالأعمال وتفصيل الطاعات مانعاً من انكشاف جلية الحق فما ظنك بمن صرف الهم إلى الشهوات الدنيوية ولذاتها وعلائقها فكيف لا يمنع عن الكشف الحقيقي، الرابع الحجاب فإن المطيع القاهر لشهواته المتجرد الفكر في حقيقة من الحقائق قد لا ينكشف له ذلك لكونه محجوبًا عنه باعتقاد سبق إليه منذ الصبا على سبيل التقليد والقبول بحسن الظن فإن ذلك يحول بينه وبين حقيقة الحق، ويمنع من أن ينكشف في قلبه خلاف ما تلقفه من ظاهر التقليد، وهذا أيضًا حجاب عظيم حجب به أكثر المتكلمين والمتعصبين للمذاهب، بل أكثر الصالحين المتفكرين في ملكوت السموات والأرض لأنهم محجوبون باعتقادات تقليدية جمدت في نفوسهم ورسخت في قلوبهم وصارت حجاباً بينهم وبين درك الحقائق، الخامس الجهل بالجهة التي يقع منها العثور على المطلوب فإن طالب العلم ليس يمكنه أن يحصل العلم بالمجهول إلا بالتذكر للعلوم التي تناسب مطلوبة إذا تذكرها ورتبها في نفسه ترتيباً مخصوصاً يعرفه العلماء بطرق الاعتبار فعند ذلك يكون قد عثر على جهة المطلوب، فتنجلي حقيقة المطلوب لقلبه فإن العلوم المطلوبة التي ليست فطرية لا تقتنص إلا بشبكة العلوم الحاصلة.. انتهى باختصار.

والإيمان والتوحيد

وعلى هذا فكل آدمي مفطور على الإيمان والتوحيد، ومعرفة الله تعالى وفى هذا يقول الله عز وجل: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى"[1]

ويقول تبارك وتعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ"[2]

ويقول سبحانه: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا"[3]

وقال ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهتودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون بها من جدعاء" أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما.

وفى الحديث عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما "قيل لرسول الله ﷺ: أين الله، في الأرض أو في السماء؟ فقال: في قلوب عباده المؤمنين"

وفي الخبر القدسي "لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن اللين الوادع" –أي وسع توحيده ومعرفته عز وجل لأوسع ذاته العلية جل الله عن الحلول والاتحاد.

والمعنى في هذه الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة أن الإنسان ممكن من المعرفة مستعد للإيمان والتوحيد استعدادًا قريباً، قادر على تحصيله متى أراد الله

---

[1] الأعراف: الآية ١٧٢

[2] سورة الروم الآية ٣٠

[3] سورة الأحزاب الآية ٧٢

تعالى له ذلك وساعده بهدايته وتوفيقه، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، ويرى الصوفية وكثير من المحققين أن الله تعالى لما خلق الأرواح قبل الأجسام كشف لها حقائق الأمور، وخلق لها معرفته وتوحيده وجعلها عالمة بالفعل. ثم أشهدها على أنفسها وأخذ ميثاقها على ذلك، لكن لما حلت في الأبدان واشتبكت بها وتنقلت في الأطوار المختلفة تراكمت عليها الظلمات وحجبت بعالم الشهادة عن عالم الغيب وانشغلت بتدبير البدن وشهواته فنسيت ذلك الإقرار والميثاق وجعلت بعد علمها ولذلك بعث الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مطالبين بهذا الميثاق مذكرين به "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"[1]

فحقائق المعارف منطبعة في الأرواح من يوم الميثاق فلذلك قامت بها الحجة فيما لا يزال.

ومن هنا لم يحرص الصوفية على تحصيل المعارف بكثرة البحث ومعاناة الأدلة بل قالوا إن الطريق إلى اكتساب المعارف– بعد تحقيق الأصول ومعرفة القواعد الأساسية وما لابد منه من معرفة الأحكام العملية– تقديم المجاهدة ومحو صفات القلب المذمومة وقطع العلائق الشاغلة والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى.

وسواء كان هذا أو ذاك فمما لا شك فيه أن الإيمان مركوز في النفوس موجود فيها، بالقوة من أجال خاطرة في نفسه واستعمال عقله تذكر وآمن، فكان كمن حمل شهادة فنسيها بالغفلة ثم تذكرها، ولذلك قال الله تعالى في مواضع من كتابه العزيز: "لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ"

---

[1] سورة الحديد الآية ٨

"وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"[1]

"وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ"[2]

"وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ"[3]

قال الإمام الغزالي: "تسمية هذا النوع تذكراً ليس ببعيد فكأن التذكر ضربان: أحدهما أن يتذكر صورة حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود، والآخر أن يتذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة، وهذه حقائق ظاهرة للناظر بنور البصيرة ثقيلة على من مستروحه السماع والتقليد دون الكشف والعيان، ولذلك نراه يتخبط في تأويل التذكر وإقرار النفوس أنواعاً من التعسفات ويتخايل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المتناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليه بعين الاستحقار، ويعتقد فيه التهافت ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيعثر فيها بالأواني المصفوفة في الدار فيقول ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى مواضعها فيقال: إنها في مواضعها وإنما الخلل في بصرك، فكذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم".

مجمع العجائب

فظهر أن الإنسان كما يقول الحكماء، مجمع العجائب ومحل الغرائب، فهو معدن العقل والحكمة والتدبر والاعتبار، كما أنه مركز الشهوة والحمية والهوى.

فيه الروح الصافية المقرة بالربوبية والتوحيد، الداعية إلى الحق والخير، وفيه النفس الإمارة بالسوء، العازمة للباطل والشر.

---

[1] سورة إبراهيم الآية ٥٢

[2] سورة المائدة الآية ٧.

[3] سورة القمر الآية ١٧.

روى ابن عبد البر في التمهيد "أن الله تعالى خلق آدم وجعل فيه نفساً وروحاً فمن الروح عفافه وفهمه وحلمه وسخاؤه ووفائه، ومن النفس شهوته وطيشه".

والمراد – والله اعلم – أن النوع الآدمي فيه جميع ذلك، ومن استقرأ أحوال الناس، رأى العجب العجاب وشاهد من تفاوتهم وتباين أحوالهم ما يكاد يبلغ حد التناقض، فمنهم من تقوى روحه وتغلب ملكيته فيرتقي درجة الكمال حتى يصل إلى أعلى عليين، ومنهم من تقوى نفسه وتغلب عليه بهيميته فينحدر في الضلال ويرتطم في أحوال الرذائل حتى ينحط إلى أسفل سافلين ويكون شرًا من الدواب "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"[1] وهؤلاء هم قبضة جهنم وسكان الجحيم. "وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"[2]

منهم من يكون عقله هو القاهر لقلبه ونفسه، كالراجل الذي تمكنت منه عقيدة خاصة حتى فنيت فيها نفسه، وامتلأ بها قلبه، وكما هو شأن المؤمن حق الإيمان، الذي غلبت لذة اليقين على عقله فانقلب حبه وبغضه وشهوته، إلى ما يأمر به الشرع فلا يبغى عن حكم الشرع بديلاً.

ومنهم من إذا أصابه غضب، أو هاج في قلبه طلب منصب عظيم يستهين في جنبه باللذات، وربما تعرض لمثل هذا شهوة وتدعوه إليها نفسه أشد دعوة فيجاهد نفسه مجاهدة عظيمة ولا يطيعها فيما دعته إليه، وربما يصبر على الجوع والعزى لا يسأل أحداً شيئاً لما جبل عليه من الأنفة والعزة.

---

[1] سورة الأنفال الآية: ٢٢

[2] سورة الأعراف: آية ١٧٩.

ومنهم من تكون نفسه هي القاهرة على عقله فإذا عرضت له شهوة اقتحم فيها وإن كان ألف عار، ولا يلتفت إلى من يرغب فيه كبار الهمم من المناصب العالية والمنازل الرفيعة، ولا يخشى ما يصيبه من المذلة والعار. وربما يبدو لهذا الإنسان مطعم هنى أو تسنح له شهوة جنسية يعلم أن فيها مضرة من جهة الطب أو جهة سطوة بعض الناس فيخاف ويرتعش ثم يصيبه الهوى فيقتحم في داعية النفس وينسى عواقب ما تجني يداه.

بل الشخص الواحد ربما يتقلب قلبه وتختلف أحواله بين حين وحين كما قال حذيفة ﷺ "يأتي على القلب ساعة يمتلئ بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة، ويأتي عليه ساعة يمتلئ بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة".

ومن كلام الإمام علي رضي الله تعالى عنه "لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هي أعجب منه وذلك القلب. وله مواد من الحكمة وأضداد من خلافها فإن سنح له الرجاء أذله الطمع. وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص. وإن ملكه اليأس قتله الأسف. وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ. وإن أسعده الرضا نسي التحفظ. وإن ناله الخوف شغله الحذر. وإن اتسع له الأمن استلبته العزة. وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى. وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع. وإن عضته الفاقة شغله البلاء. وإن جهده الجوع قعد به الضعف. وإن أفرط به الشبع كظته البطنة. فكل تقصير له مضر. وكل إفراط له مفسد.."

وقد أشار لذلك كله رسول الله ﷺ حيث يقول فيما أخرجه البخاري في صحيحه: "الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا" قال القرافي في الفروق يعنى أن الناس مختلفون في سجاياهم وخلقهم، وطبائع نفوسهم وأمزجتهم.

فمنهم الجبان للغاية. والشجاع للغاية، ومنهم بين بين، وكذلك في الشر

والخير والكرم والبخل والفهم وقياس الغائب على الشاهد، والحدس والتخمين، والتأثير بالهمة في الغير. كما أن المعادن مختلفة في جواهرها وأشكالها وخواصها، فأهل السجايا الكريمة والطباع الخيرية في الجاهلية هم كذلك في الإسلام إذا عرفوا الحق وعملوا به.

لمة الملك ولمة الشيطان

وقد جعل الله تعالى قلب الإنسان متجاذبًا بين شيطان يحرضه على الشر ويعده بالفقر ويأمره بالفحشاء، وملك يلهمه الخير ويدعوه إلى السداد قال ﷺ: "في القلب لمتان، لمة من الملك، إبعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى وليحمد الله عليه، ولمة من العدو – الشيطان – إبعاد بالشر، ونهي عن الحق، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم" رواه الترمذي والنسائي وابن حيان من رواية ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الملائكة ومن الجن قالوا: "وإياك يا رسول الله قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم" روى "أسلم" بصيغة المضارع أي فأسلم أنا من شره، وروي بصيغة الماضي ومعناه أنه استسلم وانقاد أو أسلم حقيقة أي دخل الإسلام.

وفى رواية زيادة "فلا يأمرني إلا بخير" أخرجه مسلم وعن الحسن رضي الله تعالى عنه " إنما هما همان يجولان في القلب، هم من الله تعالى، وهم من العدو، فرحم الله تعالى عبداً وقف على همه، فما كان من الله – ولا يكون إلا موافقاً للشرع– أمضاه، وما كان من عدوه جاهده".

نسخة الوجود

ومن هنا قيل إن الإنسان أنموذج الكون ونسخة الوجود من عرشه إلى فرشه، قد ركبه الله تعالى تركيبًا محسوساً ومعقولاً جمع فيه بين ظلماني كثيف وهو الجسم، ونوراني لطيف وهو الروح أودع فيه قوى ظاهرة وأخرى باطنة وخلط فيه العناصر الأربعة الماء، والتراب، والنار، والهواء.. وجعل فيه من صفات الملائكة العقل، والمعرفة، والعبادة. ومن صفات الشياطين الإغواء والتمرد والطغيان ومن صفات الحيوانات أنه في حالة الغضب يكون أسداً، وفى حالة غلبه الشهوة يكون خنزيراً لا يبالي أين يلقي نفسه، وفى حالة الحرص على الدنيا والشره يكون كلباً، وفى حالة الاحتيال والخداع يكون ذئباً.

ومن صفات النبات والأشجار أن يكون في مبدئه غضاً طرياً مترعرعاً وفى آخره يابساً أسود.. ومن صفات السماء أنه محل الأنوار.... ومجمع الملائكة ومن صفات الأرض أنه محل لنبات الأخلاق والطباع ومنه اللين والخشن، ويقال إن رأسه كالعرش وصدره كالكرسي وروحه كالشمس وعقله كالقمر– ويبدو في أوله صغيرًا ثم يكبر شيئاً فشيئاً حتى يكمل ثم يعود صغيراً إذا بلغ الإنسان أرذل العمر– وحواسه كالكواكب، و عضلاته كالأرض، وعظامه كالجبال، وعروقه المملوءة بالدم كالأنهار الجارية بالماء، وسوائله المختلفة الطعوم، ماء فمه العذب، وماء عينه الملح، وماء أذنه المر، كالمياه العذبة والملحة في الأرض، وشعره كالنبات المختلف الألوان، وقلبه خزانة سره.. ولسانه ترجمان عقله.. وعيناه حارستان، وأذناه مخبرتان.. ورجلاه مطيتان.. ويداه خادمتان.

فكأن العالم وجميع ما فيه علويه وسفلية شرح لمتن الإنسان، وكل ما في الإنسان يمثل جزءاً من العالم.

قال في المباحث الأصلية:

يا ســـابقاً في موكـــب الإبـــداع ولاحقـــاً في جـــيش الاخـــتراع

أعقـــل فأنـــت نســـخة الوجـــود لله مـــا أسمـــاك مـــن موجـــود

أليـس فيـك العـرش والكرسـي والعـــالم العلـــوي والســـفلي

مـــا الكـــون إلا رجـــل كبـــير وأنـــت كـــون مثلـــه صـــغير

يا جاهلاً من داره سكناها

حكى الشعراني في كتاب "الطبقات" له عن الحارث بن أسد المحاسبي قال عملت كتاباً في المعرفة وأعجبت به فبينما أنا ذات يوم أنظر فيه مستحسناً له إذ دخل علي شاب عليه ثياب رثة وقال لي: "يا أبا عبدالله المعرفة حق للحق على الخلق أم حق للخلق على الحق عزوجل؟ فقلت له: حق على الخلق للحق فقال هو أولى أن يكشفها لمستحقها فقلت بل حق للخلق على الحق فقال هو أعدل من أن يظلمهم ثم سلم علي وخرج فأخذت الكتاب وأحرقته وقلت لا عدت أتكلم في المعرفة بعد ذلك.

أقول: الصواب أن المعرفة حق الله تعالى على الخلق وهم مكلفون بتحصيلها ومخلوقون لأجلها قال تعالى: "فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ"[1] وقال عز وجل: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[2]

فجواب المحاسبي الأول صحيح ولكن ما جرى بينه وبين الشاب المذكور، (والظاهر أنه من أولياء الله تعالى) كان الغرض منه التنبيه على أن المعرفة يسيرة ومؤنتها قليلة، وأن الله عز وجل قد مهد لعباده سبيلها وأوضح طريقها وجعل

---

[1] سورة محمد عليه الصلاة والسلام: الآية ١٩

[2] سورة الذاريات: الآية ٥٦

أصولها مضمنة في الفطرة مركوزة في النفوس الإنسانية وما بعث رسله عليهم الصلاة والسلام إلا للتذكير بها والتنبيه على طريقة اكتسابها.

ومدار تحصيلها في الواقع على توفيق الله تعالى وهدايته فهو الذي يوقظ الإنسان وينبهه لمعالم فطرته على ما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه" فليست المعرفة في حاجة إلى التكلف والتعمق في البحث والاستدلال وإنما حجب عنها من حجب بالغفلة، والانهماك في الحظوظ والشهوات.

قال في المباحث الأصلية:

يا جـــاهلاً مـــن داره ســـكناها وهـــو يـــؤدي أبـــدًا كراهـــا

لم تـــدر مـــن أنـــت وكيـــف تـــدري وأنـــت قـــد عزلـــت والي الفكـــر

يقول رضي الله تعالى عنه: يا من يبحث في مناهج الأدلة ويجتهد في طلب المعرفة ويحمل نفسه المتاعب والمشاق المقصود بين يديك والحق منك قريب، وما حجبك عنه إلا حجاب الوهم، ولا ضرك إلا نسيانك لأصلك وفطرتك وطبيعة روحك التي وهبها الله تعالى لك وهي لطيفة نورانية ربانية تدبر بدنك وتستعمل جوارحك وتأخذ بيدك إلى حضرة الجمال والجلال. وكانت قبل حلولها في هذا البدن مقرة بالتوحيد، عارفة بربها معرفة كاملة مدركة لحقائق الأشياء على ما هي عليه. فلو نظرت إلى أصلك وعرفت حقيقة أمرك ولم تشغلك شواغل الدنيا وشهواتها لانكشف عنك الوهم ووجدت نفسك أمام المقصود واسترحت من كثرة البحث والاستدلال، وقد ضرب لذلك مثلاً بمن يسكن داراً هي له في الحقيقة وهو يظنها لغيره فيؤدي له كراءها جهلاً منه بحقيقة الواقع.

فكذلك الإنسان قبل الوصول إلى معرفة الله تعالى يظن أن المقصود منه

بعيد والوصول إليه عزيز فإذا انكشف الغطاء ووجد نفسه في الحضرة أيقن أنه قد كان يجاهد في غير عدو ويتعب من غير موجب للتعب كما قال القائل:

ومن عجب أني أحن إليهمو وأسأل عنهم من لقيت وهم معي

وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وقال آخر:

وكنا حسبنا أن ليلى تبرقعت وأن حجاباً دونها يمنع اللثما

فلاحت فلا والله ما ثم حاجب ولكن طرفي كان عن حسنها أعمى

وبين رحمة الله تعالى أن سبب الغفلة واصل البلية عزل والي الفكر يعني العقل لأنه يلي الفكر ويستعمله، فلما اشتغل بالحظوظ وانهمك في تدبير الحيل التي تقتنص بها الشهوات تعطل عن معرفة الله تعال، وغفل عما هو حاضر بين يديه، مائل بين عينيه.

معرفة النفس

فمعرفة النفس الإنسانية والوقوف على خصائصها من ألزم الأشياء. وأهم المهمات قال الإمام الحارث المحاسبي:

مجموع المعرفة يرجع إلى العلم بأربعة أشياء: الله تعالى، والنفس، والدنيا، والشيطان وقال الشيخ محيي الدين بن العربي: والذي نقول به أن المعرفة ليس لها طريق إلا المعرفة بالنفس.. وهذا حق فإن من لا يعرف نفسه لا يعرف الله تعالى ولا يعرف الدنيا ولا الآخرة ولا يعرف شيطاناً ولا ملكاً ولا نبياً، ولا شيئاً من الأشياء.

قال الله تعالى: "وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"[1]

وفى الأثر المشهور "من عرف نفسه عرف ربه" أي من عرف معنى الإنسانية الحقة وما تتطلبه وما تشتاق إليه وما هي مستعدة له عرف ربه وعرف كل شيء، وأما من جهل نفسه فلا يعرف شيئاً، ولا يميز بين حق وباطل، ولا يفرق بين حسن وقبيح، وإنما يعرف ما تشاركه فيه البهائم، والحيوانات يعرف كيف يأكل، وكيف يشرب. وكيف يواقع زوجته، وكيف يقاتل غيره، وكيف يجمع المال، وكيف يغتصب حقوق الناس.

وقد يترقى قليلاً فيعرف كيف يطير في الهواء، وكيف يسبح في الماء، وكيف يحاول الوصول إلى الكواكب ومع ذلك كله فهو عن معرفة نفسه ومعرفة ربه تعالى بمعزل، فلا تخدعنك أيها الرجل القشور، ولا تعول على ظواهر الأمور.

قال الإمام أبو حامد الغزالي في كتاب "كيمياء السعادة" أعلم أن مفتاح معرفة الله تعالى هو معرفة النفس كما قال سبحانه وتعالى: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"[2] وقال النبي ﷺ "من عرف نفسه فقد عرف ربه" وليس شيء أقرب إليك من نفسك فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك. فإن قلت: إني أعرف نفسي فإنما تعرف الجسم الظاهر الذي هو اليد والرجل والرأس والجثة ولا تعرف مما في باطنك إلا الأمر الذي به إذا غضبت طلبت الخصومة، وإذا اشتهيت طلبت النكاح، وإذا جعت طلبت الأكل، وإذا عطشت طلبت الشرب، والدواب تشاركك في هذه الأمور.

فالواجب عليك أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت. ومن أين جئت إلى هذا المكان، ولأي شيء خلقت.. وبأي شيء تكون

---

[1] سورة الذاريات الآية: ٢١

[2] سورة فصلت الآية: ٥٣

سعادتك.. وبأي شيء شقاؤك..؟ وقد جمعت في باطنك صفات منها صفات البهائم ومنها صفات السباع ومنها صفات الملائكة.

فالروح حقيقة جوهرك وغيرها غريب منك وعارية عندك. فالواجب عليك أن تعرف هذا، وتعرف أن لكل واحد من هؤلاء غذاء وسعادة.

إن سعادة البهائم في الأكل والشرب والنوم والوقاع. فإن كنت منهم فاجتهد في أعمال الجوف والفرج، وسعادة السباع في الضرب والفتك، وسعادة الشياطين في المكر والشر والحيل فإن كنت منهم فاشتغل بأشغالهم.

وسعادة الملائكة في مشاهدة جمال الحضرة الربانية وليس للغضب والشهوة إليهم طريق فإن كنت من جوهر الملائكة فاجتهد في معرفة أصلك حتى تعرف الطريق إلى الحضرة الإلهية وتبلغ مشاهدة الجمال والجلال وتخلص نفسك من قيد الشهوة والغضب وتعلم أن هذه الصفات لأي شيء ركبت فيك؟ فما خلقها الله لتكون أسيرها ولكن خلقها الله لتكون هي أسيرة لك وتسخرها للسفر الذي قدامك وتجعل إحداها مركبك والأخرى سلاحك حتى تصيد بها سعادتك فإذا بلغت غرضك فارم بها تحت قدميك، وارجع إلى مكان سعادتك وذلك المكان قرار خواص الحضرة الإلهية فتحتاج إلى معرفة هذه المعاني حتى تعرف من نفسك شيئاً قليلاً فكل من لم يعرف هذه المعاني فنصيبه القشور لأن الحق يكون عنه محجوباً..

قلت: ولما لم يعرف الطبيعيون هذه المعاني التي أشار إليها أبو حامد..، وشغلوا بشهوات البهائم وتحصليها، وتعلقوا بالحواس ومداركها كان نصيبهم القشور، وحجبوا عن معرفة الله تعالى، لأن ذاته عز وجل لا نعرف في هذا العالم بالحواس، التي طلبوه من طريقها فلم يجدوه، ولو أنهم استعملوا في معرفته عز وجل العقول التي اختصهم سبحانه بها، ورفعهم بها من درجة الحيوانات لوجدوه

وعرفوه، فكفرهم بالله عز وجل، وجحودهم بآياته إنما نشأ من جهلهم بأنفسهم وكفرهم بالعقول المركبة فيهم.

حجة الله على العالمين

وبهذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها وجعلهم بها مستعدين للمعرفة والإدراك، بهذه العقول التي تعرف عواقب الأمور، وتميز بين الحق والباطل، والحسن والقبيح مع الكتب المقدسة التي أنزلها الله تعالى، والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام الذين بعثهم الله تعالى بالكتاب والحكمة مبشرين ومنذرين هادين ومرشدين انقطعت معاذير العباد، وقامت عليهم حجة الله تعالى واضحة بينة، وقد أبقى الله تعالى لهذه العقول مجالاً في كل صنعة من الصناعات الدنيوية وترك لها من كل نعمة أنعمها على الإنسان جانباً يفتقر للنظر ويحتاج للتفكير. وجعل من الموجودات المتصلة بالإنسان القائم عليها نظام حياته حقائق ثابتة لا تدركها الحواس ولا ترى بالأبصار. وإنما تعرف بأفعالها كحقيقة العقل والروح، وكصفاتنا القائمة بذواتنا من العلم والإرادة والحب والبغض والخوف والرجاء.. كل ذلك لترتاض العقول على النظر وتتعود البحث والاستدلال فتسهل عليها معرفة الله تعالى وقبول ما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.. ولذلك أحال الله تعالى على العقل من يتشكك في الدين تنبيهاً على شرفه وجلالة أمره، وأنه العمدة في فهم الكتب المنزلة.

كما قيل: لولا العقل لم ينتفع بالكتاب، ولولا الكتاب لأصبح العقل حائراً واجتماعهما نور على نور:

قال الله تعالى: "لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا"[1]

---

[1] سورة الأنبياء: الآية ٢٢

وقال عز وجل: "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ"[١]

وقال تبارك وتقدس: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ"[٢] الآية.

وقال تعالى: "أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ"[٣]

هل يجد الإنسان أبلغ من هذا الاحتجاج، واقطع للمشاغبة واللجاج؟

وقد ضرب عز وجل مثل العقل والدين فقال: "اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[٤]

جعل المصباح مثلاً للعقل لما فيه من العلوم الضرورية التي يهتدي بها السائرون، وجعل المشكاة مثلاً لصدر المؤمن، والزجاجة مثلاً لقلبه، والشجرة المباركة وهي الزيتونة مثلاً للقرآن، وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيهاً على أن القرآن ودين الإسلام مصون عن الإفراط والتفريط، وبين أن القرآن يمد العقل بالمعرفة كما يمد الزيت المصباح، وأنه لوضوحه يكاد يكفي وحده وإن لم يعضده العلوم العقلية.. ثم قال" نور على نور " أي نور القرآن على نور العقل.

---

[١] سورة البقرة: الآية ٢٣.

[٢] سورة الحج: الآية ٥

[٣] سورة الطور: الآيتان ٣٥، ٣٦

[٤] سورة النور: الآية ٣٥

هل ينظرون إلا تأويله؟

فلا عذر بعد ذلك لجاهل، قال تعالى: "رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ"[1]

وقال عز وجل: "وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ"[2]

تأمل – بصرك الله تعالى– في هاتين الآيتين، ما أشدهما وأروعهما. يقول جلت عظمته إنه أنزل القرآن الكريم وفصله عالماً بما حواه من تكليف العباد وما تضمنه من الوعد والوعيد والقصص والأخبار وأحوال الجنة والنار. وغير ذلك.. وجعله هدى ورحمة لكل عاقل يومن بالخير والشر والفضيلة والرذيلة ويقيم وزناً للقيم الروحية ويعترف بحقائق الأشياء.. ثم هدد المكذبين له المكابرين فيه بلا حجة ولا برهان بأنه قد قضي الأمر ونفذ الحكم وانقطعت المعاذير بعد ما وهب الله تعالى العقول وأرسل الرسل بالمواعظ والتذكير فلم يبق غائب ينتظر إلا تأويل هذا الكتاب العزيز، يعني وقوع ما تضمنه من الوعد والوعيد، والثواب والعقاب فما مثل من يجحد وينكص.

على عقبيه ويحاول التخلص والتنصل من التزام التكاليف إلا مثل النعامة التي ترى الصياد فتخفي رأسها في الرمل، فهل ينجيها ذلك الصياد ويجديها فتيلاً؟ كلا والله. كذلك هؤلاء الذين كذبوا القرآن، وجحدوا البيان وتشبثوا بالأوهام الباطلة لا مفر لهم ولا مهرب من عذاب الله تعالى، ولا يغني عنهم ما

---

[1] سورة النساء الآية: ١٦٥

[2] سورة الأعراف الآيتان: ٥٢، ٥٣

كسبوا شيئاً بل يوم القيامة يضل عنهم ما يفترون ويحيق بهم جزاء ما يكسبون.. "يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا"[1]

ويبدو لي أن هاتين الآيتين أي الكتاب وقعاً.. وإن أشار بعض العلماء إلى غيرهما كقوله عز وجل: "سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ"[2]

قال بعضهم: إنها أشد آية في كتاب الله تعالى، وعن بعضهم: لو سمعت مثلها من خفير الحارة لم أنم.

فطرة الله لا تتبدل

كما خلق الله تعالى العين قابلة للرؤية، والأذن قابلة للسمع، كذلك خلق العقل قابلاً للمعرفة مدركاً لحقائق الأشياء.

وكما يقع العلم بالمبصرات والمسموعات عند فتح الأجفان وعند الاستماع والإصغاء كذلك يقع العلم بالمعقولات عند استعمال العقل وتوجيهه.

وكما لا يمكن إزالة العين عن الرؤية أو الأذن عن السمع إلا لعارض يعرض لها وآفة تطرأ عليها، كذلك لا يمكن إزالة العقل عن معرفة الحقائق والتمييز بين الأشياء وأضدادها إلا إذا اعترضته العوارض كإضلال الأبوين، وإغواء الشياطين، فحينئذ يختل نظره ويفسد مزاجه، وينقلب علمه جهلاً ورشده غيا.

هذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأشار لها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج

---

[1] سورة آل عمران: الآية ٣٠

[2] سورة الرحمن: الآية ٣١

البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون بها من جدعاء"

يعني أنه كما تلد البهيمة ولدها كاملاً سليم الأطراف فلو ترك على ذلك لكان بريئاً من العيب، لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه مثلاً فخرج عن الأصل. فكذلك العقل يخلق سليماً مستعداً للمعرفة وإدراك الحقائق على ما هي عليه ما لم يطرأ عليها عارض يفسده، وهذا الحديث الشريف الذى نعده من المعجزات النبوية لأنه كشف عن الحقيقة الإنسانية وأخبر عن واقعها وقال كلمة الفصل في شأنها هو بيان وتأويل لقوله عز وجل "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" وقوله تبارك وتعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ"[1] أي أن الإنسان هو الذى صلح بفطرته الخاصة لحمل أمانة الله تعالى، وهى المعرفة والتوحيد، فكل إنسان مستعد لحمل هذه الأمانة ومطيق لها في الأصل وإنما يثبطه عن معرفتها والنهوض بأعبائها الآفات التي تطرأ عليه.

واختلف العلماء في قوله تعالى: "لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ" فقيل معناه لا ينبغي ولا يستقيم أن يبدل الناس هذه الفطرة فيخلوا بموجبها ولا يرتبوا عليها مقتضاها، باتباعهم الهوى وقبولهم وسوسة الشياطين.

وقيل المعنى لا يقدر أحد على أن يغير خلق الله تعالى فطرته التي فطر الناس عليها وهي استعدادهم لقبول الحق وتمكنهم من معرفته، ويجعل لهم فطرة أخرى مكانها غير مستعدة لذلك ولا قابله له، وهذا هو الذي ذهب إليه الراغب.. واختاره ابن القيم. وبه نقول، فإن تعذر إدراك الحقائق العقلية أو العلوم النبوية على بعض الناس لوجود موانع خاصة بهم لا ينافي وجود الاستعداد الذاتي لغيرهم، ولهم أيضاً إذا زالت عنهم الموانع المذكورة.

---

[1] سورة الأحزاب آية ٧٢

كما أن عدم رؤية بعض العيون للشمس وهي طالعة ليس دونها سحاب لآفة تصيبها أو حاجز يحجبها لا ينافي أنها بحسب الأصل قادرة على الرؤية متمكنة منها، وأن أصحاب العيون السليمة يرونها ولا يعتريهم في ذلك لبس، ولا يداخلهم شك.

ولا عبرة بما يحكيه العلماء عن طائفة من البشر يسمون "السمنية" ولا بما ينعق بها الناعقون في هذه الآونة من إنكار ما عدا الحسيات من العلوم وعدم الثقة بالعلوم ودلالتها. فإنما ذلك لمرض حل في عقولهم أفسد مزاجها، وأخل بنظرها، وقد غرهم ما رأوه من تناقض الأدلة بين العلماء، وما اعتراهم في بعض المسائل من شبه وإشكالات عسر عليهم حلها فظنوا أنها لا حل لها أصلاً، ولا أدل على فضيحة هؤلاء وفرط حماقتهم وغباوتهم من أن العقلاء قاطبة على خلاف رأيهم هذا؛ فلم يزل الناس عافتهم وخاصتهم يرون العقل طريق العلم وسبيل الوصول إلى الحقائق وكلما التبس عليهم– كما قال الخوازرمي في "مفيد العلوم"– حكم شيء من الغائبات فزعوا إلى العقل كما يفزعون إلى البصر والسمع في تعرف ما يخفى من المرئيات والمسموعات.

وأسخف من هؤلاء وأضل سبيلاً طائفة أخرى يسمونه "بالسوفسطائية" ينكرون العلم حتى بالمحسوسات كعلمنا بوجود أنفسنا ووجود الشمس والقمر وهذه الطائفة لا حيلة فيهم ولا علاج لهم إلا أن يتركوا حتى يشفيهم الله تعالى أو يهلكهم على ضلالهم.

وأنكر الشيخ ابن تيميه وجود هذه الطائفة حيث قال "وأما ما يذكره طائفة من أهل الكلام وناقلي المقالات أن رجلاً يقال له سوفسطا وأنه وأصحابه ينكرون جميع الحقائق والعلوم فهذا باطل لا حقيقة له".

قال: "ولا يتصور أن يعيش أحد من بنى آدم، بل ولا من البهائم مع

جحد جميع الحقائق والشعور بها فالإنسان مدني بالطبع فلابد أن يعرف بعض الناس بعضاً ويعرف الإنسان جوعه وشبعه وعطشه وربة ولذته وألمه ويميز بين ما يأكله وبين ما لا يأكله، وما يلبسه وما لا يلبسه، وبين مسكنه ومسكن جاره، وبين الليل والنهار وغير ذلك من الأمور التي هي ضرورية للحياة".

وجملة الأمر أن الله تعالى أكرم هذا الإنسان إكراماً لا غاية له وفطره فطرة سامية، أهله بها لكل سعادة وخير حيث جعله قادراً على إدراك الأشياء على ما هي عليه قادراً على الإيمان بالغيب مستعداً لمعرفته عز وجل وتحمل تكاليفه علماً وعملاً، مستعداً لمراقبته ومشاهدته في مصنوعاته مشاهدة قلبية لا تقل عن مشاهدة الحواس المحسوسات، مستعداً لحبه والخوف منه عز وجل مع كونه ليس جسماً ولا له صورة وشكل محسوس، مستعداً للشوق إلى الجنة ونعيمها والخوف من النار وعذابها وأن لم يكونا مشاهدين في هذه الحياة الدنيا، مستعدًا لقهر شهوته ومخالفة هواه، مستعداً لنفي خواطر الشبهات والشهوات وحفظ قلبه من طوارق الغفلة ومراعاة أنفاسه مع الله تعالى في عموم الأوقات.

اليقين الحسي واليقين العقلي

ومن الناس من لا ينكر الحقائق العقلية ولكنه يعطي الأهمية والاعتبار للعالم المحسوس .. وهذا غلط فاحش وجهل قبيح، ونقص في معنى الإنسانية كبير.

فإن من الموجودات المعلومة بالعقل والغير المحسوسة ما هو أكمل وأقوى وجوداً من المحسوسات كالعقل نفسه. وهو الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لإدراك العلوم، ويستفيد بها التجارب ويعرف العواقب ويقوم بها الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة وهو أصل العلوم ومنبعها .. وكالروح وهي القوة المدبرة للبدن

المسيطرة على جميع الجوارح والأعضاء.. وكذات الله عز وجل الذي هو أكمل الموجودات وأشرفها على الإطلاق. كيف لا.. وهو مبدعها ومخترعها.. وهو الحي القيوم القائم بنفسه، والقائم به كل موجود سواء. ولولاه ما وجد شيء من المكونات حسياً كان أو عقلياً. وإن كان هو جل شأنه لا يحس ولا يدرك بالأبصار في هذه الحياة الدنيا وإنما تدل عليه آثار قدرته، وبدائع صنعته. ونحن إذا رأينا من يكتب بين أيدينا كلمة عرفنا قطعاً قدرته على الكتابة وعلمه بها وإرادته لها استدلالاً بفعله وكان يقيننا الحاصل بوجود هذه الصفات– القدرة، العلم، الإرادة– فيه كيقيننا الحاصل بحركات يده المحسوسة وانتظام سواد الحروف على البياض وإن كان هذا مرئياً وتلك الصفات غير مرئية.

فكل علم لا يقبل الشك يقين– سواء حصل بحس كالعلم بوجود أنفسنا ووجود الشمس والقمر أو بديهة عقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر كالعلم بوجود "مكة" المكرمة لمن سمع خبرها ولم يشاهدها. أو بتجربة كالعلم بأن النار محرقة. أو بدليل كما إذا قيل للإنسان.. هل في الوجود قديم؟ فلا يمكنه القول بذلك على البديهة لأن القديم غير محسوس كالشمس والقمر ولا هو بديهي كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد فمن حق غريزة العقل أن تتوقف عن القول بوجود القديم على طريق الارتجال والبديهة قبل النظر والاستدلال وهو أن يقال له "إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثه. فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب، أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال بالبداهة، والمؤدي إلى المحال محال: فيلزم العقل التصديق بوجود قديم بالضرورة".

فهذا يقين لا شك فيه لأنه مبني على ضرورة الحس، وبديهة العقل وما بني على اليقين فهو يقين.. وما أحسن ما قال بعض العلماء من السلف "لو لم يعبد

الله تعالى إلا عن رؤية ما عبده أحد ولكن المؤمنين نظروا في آيات السموات والأرض واختلاف الليل والنهار فأيقنوا به كأنهم يرونه". ومعنى ذلك أن اليقين بوجود الله تعالى وإن لم يكن بديهياً ضرورياً يوجد في الإنسان بلا سبب ويبذل إليه بلا طلب كالعلوم التي تدركها حواسه أو يعلمها بضرورة عقله إلا أنه ممكن منه ومستعد له استعداداً قريباً، وفي قدرته وطاقته تحصيله واكتسابه متى شاء ووفقه الله تعالى لأن أصول هذا اليقين موجودة في نفسه، مركوزة في غريزة عقله يلمحها العاقل الذكي بنفسه ويتنبه إليها الغافل بأدنى تنبيه.

وعن الإمام علي رضي الله تعالى: عنه "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً".

وقيل له مرة: هل رأيت ربك؟! فقال: وهل أعبد ما لا أرى، فقال السائل: وكيف تراه؟ فقال: "لا تدركه العيون بمشاهدة العيان. ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، كبير لا يوصف بالجفاء، بصير لا يوصف بالحاسة، رحيم لا يوصف بالرقة، تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته.

وكشف بعض الغربيين السر فيما يعرض لبعض الناس من الخلل العقلي والتشبث بالحسيات أكثر من المعنويات والمعقولات حيث قال: إن كثيراً مما يعرض للشباب من الخلل العقلي، والحطة الخلقية ناشئ من آثار المادية.. ومن ذلك أنها تعود الفكر أن يتشبث بالآراء الحتمية- يقصد الآراء المستندة إلى ضرورة الحس- حتى يفقد القدرة على صحة الحكم والتبصر في الأمور... وهذا كلام قيم ومهم جداً. وقد قال مثله وأبدع منه العارف السيد عبدالعزيز الدباغ كما في كتاب "الإبريز" حيث جعل من أجزاء العلم- أي من خصائص العلم وهو الصفة التي تنكشف بها المعلومات- حمله للمعلومات وهو نور في العلم

يوجب له حصول الأشياء فيه حصولاً يفوق حصول المبصرات في البصر، والمسموعات في السمع، والمحسوسات في الحواس. فحصول الأشياء فيه بمثابة الذات، وحصولها في البصر مثلاً بمثابة الظل والخيال يعني أن الحصول الثاني كالخيال بالإضافة إلى الحصول الأول، فالحصول في العلم هو الحصول الحقيقي، والحصول في البصر هو الخيالي عكس ما يعرفه الناس وإنما انعكس الأمر عند الناس لقلة نور العلم فيهم- يعني لضعف صفة العلم الناشئ من ضعف العقل- حتى أنه كالشعرة أو أقل فلما قل العلم فيهم صاروا معولين على الحواس. وأما من أعطاه الله تعالى العلم الكامل فإن البصر وسائر الحواس عنده كالخيال بالإضافة إلى ما عنده من العلم.. إلى أن قال فالعلم محيط بالظاهر والباطن، والأجزاء وأجزاء الأجزاء، وبالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل، والبصر مثلاً إنما يتعلق بالسطحيات ولا يعمها فضلاً عن أن يخرقها إلى الباطن.. فلا ينبغي أيها الرجل أن يعظم عندك أمر الحواس حتى تعتقد أن المدركات الحقيقية هي المحسوسات فقط بل الله تعالى جعل للحواس أشياء تدركها وللعقل أشياء يختص بها وكل في بابه كاف واف.. والعقل والحواس كلها متعاونة متعاضدة، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ولا في حكمته من تقصير..

الضروري والنظري

ولا تظن أن هناك فرق بين العلوم الضرورية والنظرية إلا من جهة أن الأولى تحصل ابتداء. لا يدري الإنسان متى حصلت. ولا كيف حصلت. ولذلك يشترك فيها الخاصة والعامة ولا يتوجه إليها جحد ولا إنكار، ولا تحسن المطالبة فيها بدليل لأنها منتهى الأدلة وغاية النظر.

والثانية تبنى عليها وتحصل بعدها، ويعرف الإنسان الطريقة التي اكتسبها بها. ومثال ذلك أنك تعلم نفسك وتعلم أنك موجود بالضرورة ولكنك لا تعلم

أنك محدث وأن لك صانعاً أحدثك إلا بعد الفكر والنظر فعليك بوجود نفسك سابق على علمك بأنك حادث، وعلمك بأن لك محدثاً. ويسمى الأول علماً ضرورياً لأن الله تعالى ألجأ نفسك له واضطرها إليه، والثاني نظرياً لأنك اكتسبته بنظرك وفكرك.. هذا كل الفرق ولا فرق غيره اللهم إلا من حيث الوضوح والخفاء. وهذا لا يعد فرقاً حقيقياً ولا تأثير له في المطالب العلمية أصلاً.

تعيش العقول

قيل لابن المبارك لما كثرت الأحاديث الموضوعة هذه الأحاديث الموضوعة. فقال تعيش لها الجهابذة– أي نقاد الحديث وحذاقه.

ونحن نستعير هذه الكلمة منه ﷺ ونقول تعيش العقول.. تعيش العقول التي جعلها الله تعالى الوسيلة إلى معرفته، والسبب الذي يتوصل به إلى تصديق رسله عليهم الصلاة والسلام.

تعيش العقول التي هي أول رسول بعثه الله تعالى إلى عباده وهي حلقات الاتصال بينهم وبينه عز وجل. والموازين العادلة التي تعرف بها مقادير الأشياء. تعيش العقول التي تدفع الشبه وتفهم النصوص، وتدفع التعارض الذي يبدو بين بعضها والبعض الآخر، تعيش العقول التي لا تخاصم الشرع ولا تنكر الوحي بل ترى فيه نورها ورشدها، إن مثل الشرع كمثل الشمس، ومثل العقل كالعين فإذا فتحت العين وكانت سليمة استعانت بنور الشمس على رؤية الأشياء.. وكذلك العقل إذا تأيد بنور الشرع واستعان بالعلوم النبوية عرف الحق حقاً والباطل باطلاً وعاش عيش السعداء.

بالعقل آمنا برب العالمين، وعلمنا أن سيدنا مُحَمَّداً ﷺ رسوله المؤيد بالمعجزات، المبعوث لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما بعث من قبله

آدم وإبراهيم وموسى وعيسى وسائر المرسلين لهداية العباد وإرشادهم إلى طريق السداد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

بالعقل عرفنا أن القرآن لا يقوله بشر. وليس حديثاً مفترى وإنما هو كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب مُحَمَّد ﷺ تذكرة وتبصرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

بالعقل يعرف الإنسان كيف يخلص من وساوس الشيطان وكيف ينجو من فتنه ومكايده. وكيف يحتال على النفس. وكيف يصرفها عن الباطل ويشغلها بالحق فيربح الربح العظيم وينال الخير العميم.

بالعقل يعرف الإنسان أنه لا يربح على نفسه بأجل من أن يشغلها في كل وقت بما هو أولى فيه.

بالعقل يدين الإنسان نفسه ويعمل لما بعد الموت.

بالمقل يحب خالقه المنعم عليه بالعقل وغيره من سائر النعم، الذي جعله سيد الموجودات كلها، وخلقها كلها من أجله.

بالعقل يعرف الإنسان أنه وجد في هذه الحياة الدنيا لغاية خاصة ومهمة محدودة "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ".

بالعقل يعرف الإنسان نفسه وما انطوت عليه من العجائب والأسرار وما ركب فيه من الشهوة والهوى، وما دعي إليه من الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور فيجعل لقاء الله تعالى مقصده، والدنيا منزله، والآخرة مستقره.

ويستعين بكل نعمة وكل حاسة، وكل جارحة، وكل زمان وكل مكان وكل صديق على طاعة الله تعالى واكتساب رضاه.

بالعقل صار الإنسان خليفة الله في أرضه، وموضع سره، ومحل نظره.

وما أحسن قول من قال: "بصائر المبصرين ومعارف العارفين ونور العلماء الربانين وطرق السابقين والناجين والأزل والأبد وما بينهما من الحدث لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" أي لمن كان له عقل مفكر وقلب مبصر.

وفي الحديث عن النبي ﷺ (تبارك الله الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وضومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذرة في جنب أحد وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين).

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: (كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجل شدة عبادة سأل عن عقله فإذا قالوا حسن قال أرجوه، وإن قالوا غير ذلك قال لن يبلغ).

وذكر له ﷺ شدة عبادة رجل فقال كيف عقله قالوا ليس بشيء قال لم يبلغ صاحبكم حيث تظنون.

كيف تفهم؟

أوضح المناهج وأقربها وأوسعها للسالكين، وأنجعها في فهم المسائل العلمية وإدراك الحقائق الدينية هو منهاج الفطرة الإنسانية الذي نبه إليه القرآن الكريم والسنة النبوية في غير موضع.

وبيان ذلك. أن يتصور الإنسان أي حقيقة من الحقائق الدينية ثم يستعرض العلوم المخزونة في نفسه والمبادئ الفطرية المركوزة في عقله الذي لم يزل يجرى عليها في فهم الحياة وتدبير معايشه فيها، ويستعملها في معاملاته مع الناس ومخاطبته لهم.. فيطبقها على تلك الحقيقة الدينية ويعمل بمقتضاها ويجري على سنتها تاركاً للتعمق والتكلف غير ملتفت إلى القروض والاحتمالات البعيدة التي يخلقها

الوهم ويلقيها الشيطان. كما يفعل الإنسان في الأمور الدنيوية سواء بسواء.

عند ذلك يجد مسائل الدين كلها في غاية الوضوح والجلاء موافقة لعقله ملائمة لفطرته مطابقة لعلومه فيستريح لها ويطمئن إليها لأنه قبلها بشاهد من وجدانه، وبرهان من عقله.

فليس هناك إذن شيء جديد ولا أمر غريب سوى الانتقال من الصور الحاصلة في ذهنه إلى الصور التي كانت غائبة عنه وهي مماثلة لما عنده. وبعبارة أخرى ليس هناك إلا تطبيق القواعد التي يعرفها على جزئياتها المندرجة تحتها.

يرى الإنسان كلمة مكتوبة، أو ساعة مصنوعة.. أو داراً مشيدة فيستدل بوجودها على أن لها كاتباً كتبها وصانعاً أوجدها وأحكم صنعها من غير أن يبصر هذا الصانع أو يحس بوجوده.

ويعرف بالبداهة أنه لا يستقيم واليان على خطة واحدة وأن كل اثنين مختارين متكافئين في السلم والقدرة إذا ملكا شيئاً معيناً وتصرفا فيه بالفعل فلا بد أن يحد كل منهما من قدرة صاحبه وإرادته.

وإذا كان الأمر كذلك. فهذه الأرض التي تقله، وهذه السماء التي تظله، وهذا الليل والنهار والشمس والقمر والحيوان والنبات، بل هذا الإنسان نفسه وما فيه من الجوارح والأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة.. كيف يعقل أن توجد هذه الأشياء كلها بلا موجد أوجدها وحكيم دبرها..؟ وكيف يعقل ألا يكون صانع هذا العالم واحداً منفرداً في التأثير والإيجاد. ولا يجرى في العالم فساد ولا تغيير؟

هذا هو المنهاج الفطري، والطريقة الطبيعية التي أوحت لذلك العربي الذي لم يتعلم فلسفة ولا منطقاً ولا عرف قياساً من الشكل الأول أو الشكل الثاني أن يقول: (البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماء ذات

أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على الطيف الخبير). فلم يكلفنا الله تعالى غير ما نستطيع ولم يطلب منا إلا تطبيق القواعد التي نعرفها ونسير عليها في حياتنا ومعاملات بعضنا لبعض.

لم يمتحنـا بمـا تعيـا المعقـول بـه حرصـاً علينـا فلـم نرتـب ولم نهـم

نعم.. ولم يذكر لنا جل شأنه في كتابه العزيز أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم من صفاته العلية إلا ما هو ظاهر للأفهام وقد أعطانا نموذجاً منه كالعلم والقدرة والإرادة. وما إلى ذلك مما يفهمه الإنسان بنوع مقايسة على ما في نفسه مما هو حاضر عنده في الحال أو كان له من قبل. ثم بالمقايسة إليه يفهم ما لله تعالى منه مع اعتقاده بالضرورة أن بين صفاته جل وعلا وصفات الأكوان تفاوتاً كبيراً في الشرف والكمال.

فالإنسان بين يديه مصباح هدايته، ومنهاج سعادته. وهي فطرته التي فطره الله تعالى عليها، وما أرسل الله عز وجل رسله عليهم الصلاة والسلام إلا مطالبين بميثاق هذه الفطرة مذكرين بنعم الله تعالى التي لا يحصى عددها ولا يؤدي شكرها.

قال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه في خطبة له: (إن الله سبحانه وتعالى اصطفى أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه واتخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته فبعث فيهم رسلاً وواتر إليهم أنبياء، ليستأدوهم ميثاق فطرته ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول وبروم الآيات المقدرة: من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتتابع عليهم، ولم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب

منزل أو حجة لازمة، أو محجة قائمة)..

واعلم أن هذه الطريقة الفطرية التي نبهناك عليها هي الحكمة الحقيقية والميزان الذي أنزله الله تعالى كما أنزل القرآن: " لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ"[1] وهي الطريقة القويمة التي تخرج الإنسان من التقليد المذموم وتعالج مركب النقص الذي استولى على كثير من الأذهان، وهي طريقة الكتاب العزيز قال الله تعالى: "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[2]

إلى غير ذلك من الآيات التي كلها استفهامات تقرير، كأنه تعالى يقرر عباده بشيء فطرهم عليه.

وهي كذلك طريقة الخليل والكليم على نبينا وعليهما الصلاة والسلام.

قال تعالى حكاية عن الخليل: "فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً

---

[1] سورة الحديد الآية: ٣٥

[2] سورة النمل الآيات ٦٠-٦٤

قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ"[١]

استدل عليه الصلاة والسلام– وما استدل لنفسه بل لإرشاد قومه– على حدوث الكواكب والقمر والشمس بأنها متغيرة وموصوفة بالمكان الحسي وبالأفول بعد الإضاءة الحسية وهذه أمارات الحدوث والافتقار. وما كان كذلك فلا يصح أن يكون رباً يعبد وإنما لم يتعرض لحدوث أشخاص النبات ولا أفراد الإنسان لأن حدوث هذه ووجودها بعد العدم. وعدمها بعد الوجود أمر ضروري مشاهد محسوس. وإنما الذي يحتاج إلى نظر لإثبات حدوثه هذه الكواكب التي لم يشاهد عدمها بعد وجودها، فأقام الدليل العقلي القاطع على حدوثها وإمكانها بأنها موصوفة بالصفات الممكنة المذكورة آنفاً.. ثم إنها – أي الكواكب المذكورة – هي التي عبدت في وقته عليه الصلاة والسلام من دون الله تعالى فبين أنها لا تستحق العبادة وأنها منحطة عن درجة الألوهية.

وأما سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام فقد ذكر أنواع الموجودات كلها كما حكى القرآن الكريم عنه في مناظرة فرعون:

قال الله تعالى: "قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ"[٢]

فأشار إلى إمكان السموات والأرض وحدوثهما عند من له بصيرة ويقين لما فيهما من أمارات، الحدوث على النحو الذي أشار إليه الخليل فيما سبق، ولما كان

---

[١] سورة الأنعام الآيات ٧٦–٧٩

[٢] سورة الشعراء ٢٣–٢٨

في هذا نوع خفاء وكان مناظره فرعون ومن حوله قد بلغوا من البلادة حداً بعيداً انتقل بهم إلى ما هو أجلى وأظهر وهو حدوثهم وحدوث آبائهم الأولين. فإن هذا مشاهد ضروري. وحدوث المشرق والمغرب. وحدوثها وتغيرهما أيضاً أمر مشاهد. وما كان متغيراً حادثاً استحال أن يوجد بنفسه من غير موجد أو موجد ممكن. فلزم ثبوت الصانع القديم الباقي الذي يستحيل عليه التغير والجهة والمكان.

فسبحان من أرسل رسوله الكرام عليهم الصلاة والسلام بالحجج الساطعة "وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ"[1] وسبحان من أنزل كتابه تبياناً لكل شيء وما فرط فيه شيء يتعلق بالتوحيد والدين والأحكام الشرعية عامة ولقد صدق رسول الله ﷺ وأنصف غاية الإنصاف حيث يقول- كما سبق- "إنما مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها وترك فيها موضع لبنة فصار يقال ما أحسنها لو تمت فأنا اللبنة التي تم بها الأنبياء".

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كل يعضد الآخر، والقرآن جمع علوم الأولين والآخرين..

ولا تحتاج هذه الطريقة إلى فلسفة ومنطق ولهذا عني بها القرآن الكريم وهو كتاب الخاصة والعامة وأبرزها في صور عديدة وأساليب متنوعة كلها في غاية الجلاء والوضوح لتسع الناس جميعاً منها ما سبق ذكره ومنها قوله عز وجل: "أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ"(٢). وقوله جل ذكره: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩)

---

[1] سورة الأنعام الآية ٨٣.

[2] سورة ق الآيات ٦-٨

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ"[1] وقال: "أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ"(٢). وقال: "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"(٣) وقال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ"[4].

وقال: "ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[5]

قال بعض الأئمة: إنما أوردت حجج القرآن على عادة العرب دون دقائق المتكلمين لقوله تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ"[6]..

ولأن من استطاع أن يفهم غيره بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لا ينبغي أن ينحط إلى الأغمض الذي لا يفهمه إلا الأقلون". وإلا كان ملغزاً. ومن ثم أخرج تعالى في مخاطباته محاجة خلقه في أجلى صورة وأوضحها ليفهم العامة ما يقنعهم والخاصة ما يليق بهم..

وبعد: فإني أعجب كثيراً ممن يظل طول حياته معتزاً بإنسانيته محتكماً إلى وجدانه وعقله معولاً عليهما معتمداً على دلالتهما في حياته ومعاملاته مع

---

[1] سورة الغاشية الآيات ١٧-٢٠

[2] سورة الواقعة ٥٨-٥٩

[3] سورة الرعد الآية ٤

[4] سورة الحج الآية ٧٣.

[5] سورة الروم الآية ٢٨

[6] سورة إبراهيم الآية ٤

الناس، يصدق الأمور الغائبة عنه إذا نقلت إليه نقلاً صحيحاً ولا يشك في خبر التواتر ولهذا يعلم وجود (بغداد أو البصرة. ومكة والمدينة) وإن لم يكن شاهدها. ويعلم أنه قد كان خلق قبلنا عاشوا على ظهر هذه الأرض كما نعيش نحن عليها ولا يزال في حياته يثق بالرجل إذا جرب صدقه وأمانته ويذعن لمن زاد عليه عقلاً وعلماً ويستدل بتأليف الشافعي رضي الله تعالى عنه ميلاً على كمال عقله وقوة استنباطه حتى إذا حاكمناه إلى العقل والوجدان وعرضنا عليه ما يوافقهما نكص على عقبيه، وجعل أصابعه في أذنيه. قال الفخر الرازي "قال بعض الفضلاء: إن من لطم على وجه صبي لطمة فتلك اللطمة تدل على وجود الصانع المختار، وعلى وقوع التكليف، وعلى وجوب دار الجزاء، وعلى وجود النبي: أما دلالتها على وجود الصانع المختار فلأن الصبي العاقل إذا وقعت اللطمة على وجهه يصيح ويقول: من الذي ضربني؟ وما ذاك إلا أن مشاهدة فطرته تدل على أن اللطمة لما حدثت بعد عدمها وجب أن يكون حدوثها بفاعل فعلها ومختار أدخلها في الوجود. فلما شهدت الفطرة الأصلية بافتقار ذلك الحادث مع قلته وحقارته إلى الفاعل فبأن تشهد بافتقار جميع الحوادث إلى الفاعل كان أولى.

وأما دلالتها على وقوع التكليف فلأن ذلك الصبي ينادي ويصيح ويقول لم ضربني ذلك الضارب؟ وهذا يدل على أن فطرته شهدت بأن الأفعال داخلة تحت الأمر والنهي ومندرجة تحت التكليف وأن الإنسان ما خلق ليفعل أي فعل شاء ويأتي أي أمر اشتهي.. وأما دلالتها على وجوب دار الجزاء فهو أن ذلك الصبي يطلب الجزاء على تلك اللطمة وما دام يمكنه طلب ذلك الجزاء فإنه لا يتركه. فلما شهدت الفطرة الأصلية بوجوب الجزاء على ذلك العمل القليل فبأن تشهد على وجوب الجزاء على جميع الأعمال كان أولى.. وأما دلالتها على

وجوب النبوة فلأن صياح ذلك الصبي واستنكاره لتلك اللطمة يدل أن الناس في دنياهم محتاجون إلى إنسان يبين لهم أن العقوبة الواجبة على تلك الجناية. كم هي، ولا معنى للنبي إلا الإنسان الذي يقدر هذه الأمور ويبين هذه الأحكام.

فثبت أن فطرة العقل حاكمة بأن الإنسان لابد له من هذه الأمور الأربعة..

قلت: فالطبيعيون قد خالفوا مقتضى العقول، ونقضوا الميثاق القطري المأخوذ على نفوسهم، حين أنكروا وجود الله تعالى، وجحدوا النبوات. وما مثلهم إلا كمثل الشخص الذي يخلق ناقصاً، فاقد بعض الأطراف من جسمه، أو مثل الشخص الذي يصاب بخلل في مراكز تفكيره فيهذي ويهرف بما لا يعرف. والله تعالى في خلقه شئون.

أيحسب الإنسان أن يترك سدى

الملائكة عليهم الصلاة والسلام مجردون من الشهوات والأهواء، مفطورون على البصائر والعقول، لا يزعجهم جوع ولا عطش، ولا يهمهم تغذية ولا تنمية جبلهم الله تعالى على طاعته، وجردهم لخدمته، وشغلهم بحبه ومشاهدة جماله وجلاله، فلا حاجة بهم إلى التكليف..

والبهائم مشغولة بشهواتها، مجردة من العقول فلا تنبعث إلا إلى لذاتها الجسدية.. فلم تقتض الحكمة الإلهية تكليفها بشيء.

والإنسان جعل فيه العقل والبصيرة، وجعل فيه استعداد لفهم الخطاب واحتمال التكليف، ومع ذلك فقد ركبت فيه الشهوة والهوى فأصبح عرضة للانحراف وتغليب جانب الشهوة.

لذلك خصه الله تعالى بالتكليف، وتوجه إليه الأمر والنهي.

فاعتدال المزاج الإنساني، واختصاصه بموهبة العقل، وقدرته على قهر

نفسه ومخالفة شهوته.. كل ذلك جعله يستعد لتلقي العلوم الربانية والشرائع الإلهية التي تصلح شأنه، وترسم له قواعد العدل والإنصاف.

خلق الله تعالى الإنسان خلقة ممتازة. وجهزه بجهاز علمي كبير. ألهمه النطق وعلمه البيان، وأمده بالعقل والتميز فلم بالضرورة أنه ما خلقه على هذه الصورة العجيبة والنشأة الممتازة إلا لغاية سامية، وحكمة بالغة أفصح عنها الكتاب العزيز حيث يقول "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ"[1] أي إلا ليعرفوني ويطيعوني. والمعنى أنه عز وجل خلقهم صالحين ومستعدين لمعرفته وطاعته بالعقول المركبة فيهم والغرائز التي جبلوا عليها.

وليس يخفى على منصف أن الإنسان مهما كان حصيف العقل سليم التفكير فإنه لا يمكنه بمجرد عقله أن يعرف الله تعالى بصفاته وأسمائه معرفة صحيحة خالصة من شوائب الشرك والتشبيه، وليس في طاقته أن يعرف كيف يعبد الله ويتقرب إليه.. ثم إن الله تعالى قد جعله محتاجاً إلى الطعام والشراب واللباس وغير ذلك من لوازمه ومصالح حياته ومقومات عيشه، وليس تحصيل هذه الأمور ميسوراً للشخص إلا بمعاونة ومعارضة من بني نوعه فهو بالضرورة مضطر إلى مشاركة الغير محتاج إلى الاجتماع تيسيراً لتبادل المنافع.. ومن الغرائز الإنسانية كما هو معلوم حب النفس والميل إلى الأثرة، ومن أجل هذا تقع المزاحمة، والمزاحمة تفضي إلى التنازع والتناحر بالضرورة. فمن ثم دعت الحاجة إلى أن يأتي الرسل عليهم الصلاة والسلام بما يقيم للناس مصالح دنياهم، وينظم طرق معاملاتهم ومعاوضاتهم. حتى يعرف كل منهم ماله وما عليه فيأخذ حقه بالمعروف. ويتناول حاجته من غير ضرر ولا ضرار.

لو كان جميع أفراد الإنسان مفطورين على الرحمة والعدل وحب الخير

---

[1] سورة الذاريات آية: ٥٦

وعدم الاستئثار بالمنافع لجاز أن تخلو بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام من التشريعات الخاصة بمصالح الدنيا ومراعاة العدل في تناولها وتداولها، وأساغ أن تكون شرائعهم الإلهية خاصة بإصلاح العقائد وإقامة العبادات الأخروية فقط. بل لو كان جميع أفراد الإنسان كذلك لكانوا ملائكة روحانيين لا حاجة بهم إلى بعثة وتشريع ولكنهم بهذه الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها، وبما ركب فيهم من الشهوات، وسلط على عقولهم من الأهواء والغفلات كانوا في أشد الحاجة إلى إرسال الرسل، وإنزال الكتب.. وكان إسعاف الله تعالى لهم بذلك من أعظم النعم وأجل المنن.. كما قال عز شأنه "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"[1]

فالضرورة إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام والحالة هذه أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها– كما قال ابن القيم في زاد المعاد.

---

[1] سورة آل عمران الآية ١٦٤